دمشق في القرن السابع عشر

نصر الدين البحرة

كان لابد أن يمر قرنان أو ثلاثة، على انتهاء الحروب الصليبية، قبل أن يستعيد الغرب أنفاسه، إثر الهزائم الساحقة التي مني بها في هذا الجزء من الوطن العربي، وأرغمته على الرحيل، غير أن آثارها الثقافية والروحية التي تركت بصماتها على الحياة في القرون التالية في الغرب، فعلت فعلها، وكان لها دورها الكبير في نهضة أوروبا... وقد بدأت أواخر القرن الخامس عشر. ويبدو أن صور الشرق الذهبية التي رسخت في الذاكرة الشعبية في أوروبا، بعد القصص والأخبار والأحاديث التي رواها العائدون من أرض الحروب الصليبية، ظلت تمارس سحرها، وتحرض على التحرك باتجاه الشرق ، ولكنه كان تحركاً من نوع آخر، يهدف إلى تعميق المعرفة والاطلاع على أحوال الوطن العربي من جهة، ويبغي إسكات ذلك الفضول النهم إلى الكشف ومعانقة أسرار الشرق من جهة ثانية.

في ذلك الزمن، مطلع القرن السابع عشر، ولم يكن الاستعمار الغربي قد ذر قرنه، شهدت أقطار الوطن العربي في آسيا وافريقيا، عدداً من الرّحالين جاؤوا من

مختلف أرجاء أوروبا. وكان أحد هؤلاء "لوران دارفيو Laurent d'Arvieux" فبعد أن أنهى دراسته العليا في جامعة مرسيليا، حيث أتقن بعض لغات الشرق: العربية والتركية والفارسية وغيرها، قرر أن يسافر إلى الشرق ذاته.

أبحر دارفيو من مرسيليا عام ١٦٥٣، فكانت "أزمير" في تركيا أول مدينة يبلغها، ثم تابع طريقه حتى وصل إلى صيدا، هناك أقام خمس سنوات. وعمل بنجاح في التجارة...

وبعدئذ.... بدأت القصة التي سجلها في مذكراته، ونشرت قسماً منها بعض الصحف الفرنسية في القرن السابع عشر، ثم جمعها ونشرها في ستة أجزاء راهب دومنيكاني عام ١٧٣٥... بعد وفاة دارفيو بثلاث وثلاثين سنة.

لقد اطلع على هذه المذكرات الباحث السوري الأستاذ أحمد ايبش، فاختار منها مقتطفات ترجمها بأسلوبه السلس الفصيح وعلق عليها وأضاف إليها، وظهرت في كتاب يحمل هذا الاسم "وصف دمشق في القرن السابع عشر".

سبعة أنهار صغيرة

وكانت هذه المنتخبات مما كتبه الفارس دارفيو عن دمشق وبعض ضواحيها.

من ذلك مثلاً وصفه لهذه المدينة، فهو يقول إنها تربض في سهل فسيح تحوطه الجبال من جميع جنباته. ويتمتع السهل بخصب رائع إذ ترويه سبعة أنهار صغيرة، إضافة إلى عدد من الجداول تتفرق مياهها في أنحاء السهل، بعد أن تسقي الحقول والبساتين فتضفي عليها نضرة زاهية تعم جميع جنباتها.

ويتابع دارفيو قائلاً: ورغم المظهر الريفي لهذه البساتين فإنها تتمتع بسحر أخّاذ، تحيط بها أشجار الفواكه التي تتزود منها المدينة فضلاً عن المدن المجاورة بكل أنواع الفاكهة، سواء مايؤكل في موسمه، أو مايحفظ على مدار العام.

دمشق تاريخ للحروب

وهو يؤكد أن دمشق واحدة من أقدم مدن العالم، ولكن من العسير الاهتداء إلى الاشتقاق الأصلي لاسمها. على أنها دمرت مرتين على أيدي التتار، ثم كانت بعدئذ مسرحاً لحروب طويلة قاسية قامت بين سلاطين مصر المماليك وبين الأتراك العثمانيين.

ويتوقف دارفيو ملياً عند أسوار دمشق، فيرى أن أسواراً محدثة تحيط بها باستثناء الناحية التي أدلي منها القدّيس بولس في سلة... أي عند باب كيسان. وقد أنشئت مكانه عام ١٩٣٩ كنيسة تحمل الاسم نفسه: كنيسة بولس.

ويضيف الأستاذ ايبش أن سور دمشق الروماني، كان قد أُخْرِب بكامله حين احتل العباسيون المدينة ودمروها عام ١٣٢هـ، ولم يبق منه سوى قطعة تمتد بين باب السلامة- أو باب السلام- وباب توما.. وقد أعيد بناء هذا السور ورمم في عهد نور الدين الشهيد...

أسوار دمشق مزدوجة

على أن الرحالة الفرنسي يلاحظ أن أسوار دمشق مزدوجة في جميع أجزائها كما رآها في القرن السابع عشر. وهنا يرى الأستاذ ايبش فرصة مناسبة للتنبيه إلى أن الدراسات الأثرية المعاصرة، لا تذكر ازدواج سور دمشق إلا في بعض الأماكن، كالقطعة القائمة بين باب الفرج في المناخلية وبين باب الفراديس في العمارة، حتى إن زقاقاً قام في هذه المنطقة، فدعي ومايزال يدعى: "زقاق بين السورين". وهناك باحثون آخرون قالوا بازدواج السور بين الباب الصغير وباب الجابية.. أضف إلى ذلك أن بعض المؤرخين العرب كابن الأثير وابن كثير ذكروا ضمن رواياتهم التاريخية ازدواج سور دمشق بكامله...

وحول ازدواج السور، يستطرد أحمد ايبش، فينقل عن "السير جون موندفيل" Sir John Maundevill" الذي زار دمشق في القرن الرابع عشر سنة ١٣٢٢ قوله "إن دمشق

مسوّرة بإحكام بسور مزدوج".

وهذا ماذكره أيضاً الرحالة الإيطالي جورجيو غوتشي "Georgio Gucci" الذي زار دمشق في النصف الثاني من القرن نفسه: الرابع عشر، فهو يقول إن سورين يدوران بدمشق، الأول متين يبلغ ارتفاعه زهاء ٣٠ ذراعاً وهو خارج الخندق، والثاني يبعد عنه بين ١٥ و ١٦ ذراعاً ويزيد ارتفاعه عشرة أذرع عن السور الأول. والسوران محصّنان، إذ تقوم عليهما أبراج مستديرة كثيرة على أبعاد تبلغ خمسين ذراعاً في كل حالة. والأبراج أعلى من السورين وحول السورين خندقان، داخلي.. وخارجي...

بيوت نظيفة مفروشة جيداً

أما بيوت دمشق، كما يصفها دارفيو، فإن القسم الأعظم منها مبني من الطين، وهي تبدو صغيرة الحجم من الخارج، أما الداخل فأمر البيوت مختلف فيه تماماً، فإن شققها كبيرة، حسنة الترتيب، وهي نظيفة ومفروشة بشكل جيد، وجدران هذه البيوت ملبّسة ومزخرفة ومزينة بالرسوم وفق الطابع المميز للمدينة، بكميات غير يسيرة من الذهب واللازورد.

لو عدنا إلى المعجم لوجدنا أن لكلمة "البزّ" معنى محدوداً، فإن الزمخشري يقول في أساس البلاغة: "إنه لذو بزة حسنة وهي الهيئة واللباس.

معان أخرى لكلمة : البز

والبزوز هي الثياب الجديدة، وغزا في بزة كاملة، وهي السلاح، غير أن الرحالة الفرنسي "دارفيو" يضيف إلى هذا المعنى معاني أخرى، وهو يصف أسواق دمشق في القرن السابع عشر، إذ يقول:

في المدينة بزستانات "أي: أسواق البز" تباع فيها جميع أصناف البضائع الثمنية كالأحجار الكريمة والمصوغات والأقمشة المذهبة والمفضّضة والحرير بأنواعه،

وماشابه ذلك.

وكما يبدو فإن هذه الكلمة ذات الاشتقاق الفارسي "بزستان" -أي: مكان البز- انقرضت من لغة أهل الشام، سواء أكانت فصحى أم عامية.. وحتى الأسواق التي كانت تضم مثل البضائع التي تحدث عنها دارفيو صارت لها أسماء أخرى: الصاغة، سوق الحرير، سوق الدراع أو " الذراع"، القيشاني... الخ... لكن اسم "البزة" مازال يستخدم أحياناً للإشارة إلى ثياب الرّجل، أو "طقمه الأفرنجي" كما كان يقال قبل سنوات عديدة.

ويتابع الرحالة الذي أقام سنواتٍ طويلة في حلب وطرابلس الشام، وطاف ملياً في دمشق، حديثه عن أسواق دمشق قائلاً: "هناك أيضاً العديد من الأسواق المغطاة، وهي مبنية من مقاطع حجرية ذات قناطر معقودة بإحكام، يتخللها بين الحيّز والآخر كوى تعمل على إبقاء الأسواق مضاءة بنور كاف... وتقوم على جوانب الأسواق المغطاة، أرصفة مرتفعة كالتي في الشوارع تسلكها المارة، على حين يُخصّص الحيز الأوسط الذي ينخفض قليلاً عن سوية الأطراف لأجل العربات والدواب، ويؤمن هذا الإجراء النظافة الدائمة لدروب المارة، كما ييسر حرية العبور في الأسواق في أي وقت، دونما التعرض لإفساد الجو.

الخانات كانت فنادق

وينتقل "دارفيو" إلى الحديث عن فنادق ذلك الزمن، وكانت تسمى حينذاك "الخانات"، فيقول:

وينتشر في المدينة عدد كبير من الخانات، الكبيرة منها والصغيرة، تؤوي التجار والمسافرين، وهي مبنيّة بناء ممتازاً، وجميعها ذات طراز واحد.

ويشير "دارفيو" إلى أنه تكلم في موضع آخر من مذكراته عن هيئة هذه الخانات وترتيبها، غير أن المترجم الأستاذ ايبش يكتفي بإحالة قارئه إلى الجزء الأول من هذه المذكرات ، إلا أنه يستطرد قائلاً بلسان "دارفيو" في وصف هذه الخانات:

تتوزع المخازن الطابق الأرضي، أما الأعلى فإن فيه أروقة تفضي إلى الحجرات التي في كل واحدة منها قبة صغيرة مكسوة بالرصاص.

وفي الحقيقة فإن كثيراً من هذه الخانات مايزال قائماً في دمشق حتى اليوم، ونحن نراها، حول سوقي الحميدية ومدحة باشا... وفيهما، من ذلك مثلاً... خان التتن، خان الجمرك، خان الجقمق، خان الحرير، خان الزيت..... الخ.

وإذا كانت هذه الخانات قد فقدت وظيفتها الاجتماعية كفنادق، إلا أنها مازالت تستخدم كمخازن لبعض البضائع ومستودعات.. ومشاغل حرفية.

خندق حول قلعة دمشق

ويقدم دارفيو حديثاً طليّاً مشيقاً، إذ يصف قلعة دمشق، فهي تبدو على شكل مضلّع كبير متطاول، وقد بنيت من حجارة مدببة، نحتت بعناية على شكل ماسات، ويتصل بها أربعة عشر برجاً مربعاً، خمسة منها على كل من الجانبين الطويلين للقلعة.. واثنان على كل من الجانبين القصيرين..

ويحيط بالقلعة خندق يقارب عرضه عشر قامات، أي: ٦٠ قدماً وعمقه ثلاث قامات أي ثمانية عشر قدماً. وبالإمكان ملء هذا الخندق بمياه النهر الذي يمر في المدينة أو بواسطة الجداول التي تتفرع عنه.

وأحسب أنا أن هذا الخندق ظلت بقاياه موجودة حتى القرن التاسع عشر، ذاك أني شاهدت في صورة من نوع "الغرافيك" رسمها فنان مرَّ بدمشق في القرن الماضي، مجرى مياه، فوقه مقهى، إلى الجهة الشرقية من سور قلعة دمشق في المكان الذي يقع فيه سوق العصرونية اليوم وأحسب أن هذه المياه كانت آتية من فرع بردى الذي يمر لصق القلعة... من جهة الشمال. ولاشك أن الخندق الذي تحدث عنه "دارفيو" قد ردم في وقت متأخر من القرن التاسع عشر، وقامت مكانة بعض الأسواق والبيوت.

مدخل القلعة.. فوق جسر

ويلاحظ الأستاذ أحمد ايبش، في أحد هوامشه على الكتاب أن دارفيو الذي اعترف بأنه كان يتكلم العربية وكان له أصدقاء في دمشق، وكان يلبس زي أهل دمشق، لابد أن يكون قد دخل قلعة دمشق من بابها الشرقي، وهو -أي الأستاذ ايبش- ينقل عن رحالة آخر هو مانريك، كان قد زار دمشق عام ١٦٤٠، أي في الحقبة نفسها التي جاء فيها دارفيو إلى دمشق، أن مدخلاً واحداً لقلعة دمشق، كان مستخدماً وهو الشرقي، يُعبر إليه على جسر يمكن رفعه عند الضرورة بسلاسل حديدية ضخمة.

يقول دارفيو:

لقد شاهدت أثناء دخولي، مركزاً للحراسة كبيراً ورحباً، وهو معقود ونظيف للغاية، وجدرانه مغطاة بكاملها بالأسلحة الأثرية والحديثة، بتنسيق جميل، وقد حفظت على نحو ممتاز، وإزاء الباب ثلاث قطع من المدافع المسبوكة، طول كل منها اثنا عشر قدماً، وهي فخمة جداً، ومجهزة تماماً.

الأموي: من أجمل الصروح

ويصف "دارفيو".. الجامع الأموي كما رآه في القرن السابع عشر فيرى إنه واحد من أجمل الصروح التي كانت قائمة في نطاق الدولة العثمانية، وهي التي كانت تحكم معظم الوطن العربي في ذلك العهد. ثم يستطرد قائلاً: إن طول الجامع يبلغ ثلاثمئة خطوة، أي مايعادل ٧٥٠ قدماً كما يرى الأستاذ ايبش، أما عرضه فستون خطوة، أي ١٥٠ قدماً وتستند أجنحته الثلاثة على عمد من الرخام ومن اليشب والبرفير Porphyry ، وهو الرخام الملون بالأحمر والبني. وحيطانه موشاة بالفسيفساء مع زخارف بالذهب واللازورد.

ويتم الدخول إلى الجامع من اثني عشر باباً جميلاً ذات مصاريع مكسوة بالنحاس المنقوش، كما تزينها أعمدة غاية في الروعة. ويشرف الباب الرئيسي وهو الغربي، أي باب البريد على صحن الجامع، والصحن مبلط برخام أبيض صقيل للغاية... شديد

اللمعان، حتى تخاله من صفحات المرايا، وعلى جوانب هذا الصحن أروقة مكشوفة ترتكز على صفين من أعمدة الرخام واليشب والبرفير، وفيها تجد زخارف مشغولة بمنتهى الدقة، كما أن هذه الأروقة مزدانة بالصور ومذهبة، وفيها فسقيات وأحواض رخامية يستخدمها المسلمون للوضوء..

مدحة باشا لم يأت بجديد

ويلفت النظر على نحو خاص في حديث دارفيو عن الشارع المستقيم، وهو الذي يُسمَّى قسم كبير منه اليوم "سوق مدحة باشا" إشارته إلى أنه سوق مغطى وهذا يعني أن مدحة باشا لم يأتِ أمراً جديداً حين غطى السوق المرتبط باسمه في القرن التاسع عشر.

معالم عند الباب الشرقي

وهو يشير إلى كنيسة وجدها لدى خروجه من الباب الشرقي. ولكن لم يكن قد بقي منها سوى الجرس وهو قديم للغاية.. ويذكر المترجم الأستاذ ايش أن بقاياها مازالت موجودة حتى اليوم، أما الكنيسة التي ترى حالياً في موضع قريب وتعرف باسم كنيسة بولس، فقد أقيمت مكان باب كيسان، أحد أبواب دمشق الرئيسية، عام ١٩٣٩، بمساعدة فرنسية، وقام بهندستها الفرنسي "دولوري".

يشير دارفيو أيضاً إلى برج قديم لم يبقَ له من أثر، رآه على بعد خمسين خطوة من الباب الشرقي باتجاه الخنادق، وهو برج مربع ضخم منفصل ومعزول.

الزنبقة شعار الأيوبيين

وعلى جدران هذا البرج زهرتا زنبق وأسدان، نحتت جميعاً بشكل بارز، وفي وسطها لوح كبير من الرخام منقوش بحروف عربية.

ويغتنم المترجم الباحث هذه الفرصة ليغني بعض الهوامش في هذا الكتاب ينتهي منها إلى أن أول من اتخذ شعار زهرة الزنبق كان السلطان العادل نور الدين الشهيد، وتبعه في ذلك الكثير من الملوك الأيوبيين والمماليك. ثم يقول إنه وجد في باحة المتحف الوطني بدمشق حجراً حفر عليه شعار مماثل. ويستشهد بما ذكره الأستاذ خالد معاذ، إذ عثر على شعار مماثل في مبنى أقامه الملك الظاهر بيبرس. ويتساءل: هل يكفي هذا لإثبات نسبة شعار الزنبقة بين أسدين إلى الظاهر بيبرس؟

ثم يعود الأستاذ ايبش ليؤكد أن زهرة الزنبق كانت الشعار الخاص المميز لنور الدين الشهيد، وتمكن رؤية هذا الشعار في البيمارستان النوري بدمشق.

وأما البرج نفسه الذي درس فهو الوحيد الذي وجد في دمشق منفصلاً عن سور المدينة.

ومن المواضع التي تعرّض لذكرها دارفيو، وهو يتحدث عن دمشق: الصالحية، وكانت قرية، تقبع على منحدر هضبة، حيث ينبسط من هناك مشهد الريف كله، وكم هو جميل وغني ومتنوع.

بيوت للنزهة في الصالحية

يقول دارفيو: "في الصالحية هذه يمتلك معظم أعيان دمشق بيوتاً للنزهة، وهي جميلة ولطيفة جداً، سواء للمشهد الذي تطل عليه، أو للحدائق التي تجاورها، ناهيك عن المياه العذبة الرقراقة الجارية في جميع أنحاء الهضبة"... ويضيف أن في الصالحية صومعة للدراويش الذين يحافظون بإجلال متناه على المغارة التي قيل إن أهل الكهف ناموا فيها.

وينتقل هذا المغامر الفرنسي إلى وصف أهل دمشق كما رآهم في النصف الثاني من القرن السابع عشر، فيقول: يغلب على أهل دمشق بياض البشرة وجمال الطلعة مع ملاحة في التكوين، ويتمتعون بصفاء الذهن، كما يتصفون بالرقة والظرافة والدهاء ويستطرد قائلاً: إنك تجد مظهراً معيناً من العظمة إلى جانب الحرية في هذه المدينة، مما لا يشاهد عادة في المدن الأخرى.

دمشق.... مركز تجاري

ويحب سكان دمشق أن يظهروا بلباس لائق وأن يعيشوا برفاهة وأن يقتنوا الأثاث الفاخر، وهم يحبون حريتهم. وتحت عنوان تجارة دمشق، يقول دارفيو: إن دمشق تعد واحدة من أكثر المدن اتّجاراً في الدولة العثمانية، فيها مصانع يدوية للمخمل الممتاز المطرّز، والأطالس، والتفتا، والدّمقس والبروكار، وأصنافٍ أخرى من النسيج ذي اللون الواحد والمخطط والمموج، والمناديل الحريرية، والأقمشة القطنية... وسواها...

وتجلب قوافل مكة إليها جميع أنواع العقاقير والتوابل، وبضائع من بلاد فارس والهند، ويحمل إليها الإفرنج الأغطية الحريرية والأصواف والذهب والورق والقبعات والقرمز والنيلج أو النيلة... والسكّر، وكميات من البضائع الأخرى تفرغ في صيدا وبيروت وطرابلس، ثم تنقل من هذه المرافئ مع قوافل إلى دمشق....

□□□